وقوله (إنما المسيح عيسى ابن مريم) جملة مبينة للحد الذي كان الغلو عنده فإنه مجمل ؛ ومبينة للمراد من قول الحق .

ولكونها تتنزل من التي قبلها منزلة البيان فصلت عنها . وقد أفادت الجملة قصر المسيح على صفات ثلاث : صفة الرسالة وصفة كونه كلمة ا ألقيت إلى مريم وصفة كونه روحا من عند ا . فالقصر قصر موصوف على صفة . والقصد من هذا القصر إبطال ما أحدثه غلوهم في هذه الصفات غلوا أخرجها عن كنهها ؛ فإن هذه الصفات ثابتة لعيسى وهم مثبتون لها فلا ينكر عليهم وصف عيسى بها لكنهم تجاوزوا الحد المحدود لها فجعلوا الرسالة البنوة وجعلوا الكلمة اتحاد حقيقة الإلهية بعيسى في بطن مريم فجعلوا عيسى ابنا ومريم صاحبة سبحانه وجعلوا معنى الروح على ما به تكونت حقيقة المسيح في بطن مريم من نفس الإلهية .

والقصر إضافي وهو قصر إفراد أي عيسى مقصور على صفة الرسالة والكلمة والروح لا يتجاوز ذلك إلى ما يزاد على تلك الصفات من كون المسيح ابنا واتحاد الإلهية به وكون مريم صاحبة .

ووصف المسيح بأنه كلمة ا وصف جاء التعبير به في الأناجيل ؛ ففي صدر إنجيل يوحنا " في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند ا وكان الكلمة ا ثم قال والكلمة صار جسدا وحل بيننا " . وقد حكاه القرآن وأثبته فدل على أنه من الكلمات الإنجيلية فمعنى ذلك أنه أثر كلمة ا . والكلمة هي التكوين وهو المعبر عنه في الاصطلاح ب (كن) . فإطلاق الكلمة على التكوين مجاز وليس هو بكلمة ولكنه تعلق القدرة . ووصف عيسى بذلك لأنه لم يكن لتكوينه التأثير الظاهر المعروف في تكوين الأجنة فكان حدوثه بتعلق القدرة فيكون في (كلمته) في الآية مجازان : مجاز حذف ومجاز استعارة صار حقيقة عرفية .

ومعنى (ألقاها إلى مريم) أوصلها إلى مريم وروعي في الضمير تأنيث لفظ الكلمة وإلا فإن المراد منها عيسى أو أراد كلمة أمر التكوين . ووصف عيسى بأنه روح ا وصف وقع في الأناجيل . وقد أقره ا هنا فهو مما نزل حقا .

ومعنى كون عيسى روحا من ا أن روحه من الأرواح التي هي عناصر الحياة لكنها نسبت إلى ا لأنها وصلت إلى مريم بدون تكون في نطفة فبهذا امتاز عن بقية الأرواح . ووصف بأنه مبتدأ من جانب ا وقيل : لأن عيسى لما غلبت على نفسه الملكية وصف بأنه روح كأن حظوظ الحيوانية مجردة عنه . وقيل : الروح النفخة . والعرب تسمي النفس روحا والنفخ روحا . قال ذو الرمة يذكر لرفيقه أن يوقد نارا بحطب : .

فقلت له ارفعها إليك فأحيها ... بروحك واقتته لها قيتة قدرا " أي بنفخك " .
وتلقيب عيسى بالروح طفحت به عبارات الأناجيل . و (من) ابتدائية على التقادير .
فإن قلت : ما حكمة وقوع هذين الوصفين هنا على ما فيهما من شبهة ضلت بها النصارى وهلا وصف المسيح في جملة القصر بمثل ما وصف به محمد صلى ا عليه وسلم في قوله تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي) فكان أصرح في بيان العبودية وأنفى للضلال .
قلت : الحكمة في ذلك أن هذين الوصفين وقعا في كلام الإنجيل أو في كلام الحواريين وصفا لعيسى عليه السلام وكانا مفهومين في لغة المخاطبين يومئذ فلما تغيرت أساليب اللغات وساء الفهم في إدراك الحقيقة والمجاز تسرب الضلال إلى النصارى في سوء وضعهما فأريد التنبيه على ذلك الخطأ في التأويل أي أن قصارى ما وقع لديكم من كلام الأناجيل هو وصف المسيح بكلمة ا وبروح ا وليس في شيء من ذلك ما يؤدي إلى اعتقاد أنه ابن ا وأنه إله .
وتصدير جملة القصر بأنه (رسول ا) ينادي على وصف العبودية إذ لا يرسل الإله إلها مثله ففيه كفاية من التنبيه على معنى الكلمة والروح .
(فأمنوا با ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما ا إله واحد سبحنه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى با وكيلا [171]) E A